كان يُنسب الى العرب من ابنية الفرس وهندستهم (١ . وقد وصف في كتابهِ ايضاً مسجد الخلفاء الذي هناك والمأذنة التي فوقهُ وهي يُصعد اليهـا بدرج على شكل حلزوني ومثلها مأذنة مسجد ابي دُلف السابق ذكرهُ ومأذنة جامع بني طولون في مصر كلها من طرز واحد وعهد واحد . واستأنف الحفر بعـدهُ هناك الدكتور هرتسفلد الالماني فوجد من الآثار ما يطول ذكرهُ

وبين سُرَّ من رأى وبغداد نحو ١٤٠ كيلو متراً على دجلة قطعناهـا في اليوم الثالث من سفرنا من الموصل (لهُ بقيَّة)

النصرانية وآدابها
بين
عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني

في آداب نصارى الجاهليَّة

اتينا في قسمنا الاوَّل بما وقفنا عليه من النصوص التاريخيَّة والشواهد الثابتة العيانيَّة عن نفوذ النصرانيَّة في كلّ انحاء العرب حتى اقصاها بعدًا وانحاها حدًا ثمَّ عدَّدنا القبائل التي نسب الكتبـة اليها عمومًا او الى بعض بطونها التديُّن بالدين المسيحي

وها نحن اليوم نباشر بالقسم الثاني من كتابنا نجمع فيه مـا يتعلَّق بآداب نصارى العرب في الجاهليَّة . ونريد بالآداب كلّ ما خلَّفوهُ لنا من مآثرهم في الكتابة واللغة والامثال والحكم والانشاء والشعر والخطب ممَّا رواهُ عنهم ائمَّة الادباء

(١ اطلب كتابهُ المنون (Général de Beylié : *Prome et Samarra*)

الذين جمعوا شوارد اللغة العربيَّة وآثارها في القرن الثاني بعد الاسلام . فانَّ هـذه البقايا مع ما تضعضع منها بتوالي الزمان تنبئ بترقّي النصرانيَّة بـين اهل الجاهليَّة وتثبت من وجه آخر سعة نفوذها في جزيرة العرب. ويُضاف الى هذه الآثار الادبيَّة عادات ألفتها عرب الجاهليَّة قبل الاسلام واستعاروها من النصارى فتجدهم في اطوار حياتهم الدينيَّة والمدنيَّة يتقلّدونهم ويأخذون مآخذهم حتى لا تكاد ترى في بعض الانحاء اثرًا من وثنيَّتهم السابقة . فكلّ هذه الظواهر يشهد عليها الشعراء القدماء والرواة الذين نقل الكتبة المسلمون عنهم اخبـار الجاهليَّة فنثبتها على علّاتها مع الاشارة الى مواضعها كما فعلنا سابقاً

الفصل الاوّل

النصارى والكتابة العربية

اوّل خدمة أدّاها نصارى العرب لقومهم تعليمهم الكتابة . وهي قضيَّة يشهد عليها تاريخ الكتابة العربيَّة واصولها

لمـا ظهر الاسلام في العشر الثاني من القرن السابع للمسيح لم تكن جزيرة العرب كما زعم البعض حديثة العهد بالكتابة . وانما كانت الكتابة شائعة في بعض الانحاء دون غيرها . فكان لاهل اليمن كتابة يسمّونها المسند شاعت في بني حمير بينها وبـين الكتابة الحبشيَّة في كثير من الحروف شبه ظاهر . وكانت حروفها منفصلة . وقد وجد سيّاح الفرنج كارْنو وهالوي وغلازر من آثارها في هذه السنين الاخيرة الوفاً من الكتابات يرقى عهد اوّلها الى ما قبل المسيح بنحو ٤٠٠ او ٥٠٠ سنة ومنها ما كتب في القرون التابعة للميلاد حتى القرن السادس . وهذه الكتابة التي حلّوا اسرارها ونشروها في عدَّة تآليف صابئيَّة ليست عربيَّة كما ظنّ البعض منهم كابن خلدون في مقدّمته (٢: ٣٤١ من طبعة باريس) حيث قال : «وكان لحمير كتابة تسمّى المسند ... ومن حمير تعلّمت مضر الكتابة العربيَّة الّا انهم لم يكونوا مجيدين لها»

وكان في جزيرة العرب كتابة أخرى شاعت في شماليّ بـلاد العرب وفي غربيّها وهي الكتابة النبطيَّة وقد ظهرت على صورتين صورة منها مربّعة الحروف محكمة

الصُنع مع صلابة في شكلها شاعت خصوصاً في شماليّ العرب واستعملوها في النقود والابنية لها علاقة مع الخطّ الآرامي المعروف بالاسطرنجلي وصورة أخرى مستديرة الشكل خشية الصُنع جرى لستعمالها غالباً في نسخ المعاملات والصكوك وما شاكلها

فهذه الكتابة النبطيّة على صورتيها هي اصل الكتابة العربيّة. ويدعوها العرب بالجزم اخذوهـا عن الامم المجاورة لهم . وكان النصارى هم الذين علّموها العرب سواء قيل انّهم وضعوها او انّهم نقلوهـا كقوم وسَط . ولنا على ذلك شواهد تثبت قولنا. فانّ العرب الذين بحثوا عن اصل الكتابة العربيّة نسبوها الى رجال من بَوْلان من قبيلة طيّ كانوا عـلى دين المسيح يسكنون الانبار فقاسوها على شكل السريانيّة . قال السيوطيّ في المزهر (١ : ٣٩٠)

« انّ اوّل من كتب بخطّنا هذا وهو الجزم مرامر بن مرّة واسلم بن سـدرة وعامر بن جدرة وهم من عرب طي . . . علّموهُ اهل الانبار ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها فتعلّمها بشر بن عبد الملك (١ وكان لهُ صحبة بحرب بن اميّـة لتجارتهِ عندهم فتعلّم حرب منهُ الكتابة. ثم سافر معهُ بشر الى مكّة فتعلّم منهُ جماعة من قريش قبل الاسلام وسُمّي هذا الخطّ بالجزم لانهُ جُزم اي قُطع من الخطّ الحميري وتعلّمهُ شرذمة قليلة منهم . . . »

وكذلك نقل صاحب الفهرست (ص ٤) عن ابن عبّاس قولهُ :

« اوّل من كتب بالعربيّة ثلثة رجال من بَوْلان وهي قبيلة سكنوا الانبار وانّهم اجتمعوا فوضعوا حروفًا متقطّعة وموصولة وهم مرامر بن مرّة (ويقال مروة) واسلم بن سدرة وعامر بن جدرة (ويقال جدلة) . فامّا مرامر فوضع الصور وامّا اسلم فتصل ووصل وامّا عامر فوضع الاعجام . وسُئل اهل الحيرة : ممّن اخذتم الخطّ العربي . فقالوا : من اهل الانبار »

ومثلهما ابن عبد ربّهِ في العقد الفريد (٢ : ٥ - ٢) :

« وحكوا انّ ثلاث نفر من طيّ اجتمعوا ببقعـة وهم مرامر بن مرّة واسلم بن سِدْرة وعامر بن جدرة فوضعوا الخطّ وقاسوا هجاء العربيّة على هجاء السريانيّة فتعلّمـهُ قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس احد يكتب بالعربية غير بضعة عشر انسانًا »

وروى البلاذري في فتوح البلدان (ص ٤٧١) مثل هذا القول لكنّهُ روى « بيعّة » بدلًا من « البقعة » وبنّة مدينة قرب الانبار . ثم زاد ايضاحاً بقولهِ عن بشر :

١) هو اخو صاحب دومة الجندل النصرانيّ (راجع القسم الاوّل ص ١٠٨ ١٣٠)

« وكان بشر بن عبد الملك اخو أكيدر ابن عبد الملك بن عبد الجنّ الكندي ثم السكوني صاحب دومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً فتعلّم بشر الخطّ العربيّ من اهل الحيرة ثمّ اتى مكّة في بعض شأنه فرآه سفين بن اميّة بن عبد شمس وابو قيس بن مناف بن زُهَرة بن كلاب يكتب فسألاه ان يعلّمهما الخطّ فعلّمهما الهجاء ثم اراهما الخطّ فكتبا ثمّ انّ بشرًا وسفين وابا قيس اتوا الطائف في تجارة فصحبهم غَيْلان بن سَلَمة الثقفي فتعلّم الخطّ منهم وفارقهم بشر ومضى الى دبار مضر فتعلّم الخطّ منهُ عمرو بن زُرارة بن عُدَس فسمّي عمرو الكاتب ثم اتى بشر الشام فتعلّم الخط منهُ اناس هناك. وتعلّم الخطّ من الثلثة الطائيين ايضاً رجل من طابخة كلب فعلّمهُ رجلًا من اهل وادي القرى فاتى الوادي يتردّد فاقام بها وعلّم الخطّ قوماً من اهلها »

فهذا الخطّ هو الذي بعدئذٍ نُسب الى الكوفة لمّا عُني اساتذة الكوفة بتحسينه في اوائل الاسلام. امّا الخطّ الثاني النسخيّ فالظاهر انّ العرب اخذوهُ من نصارى النبط المجاورين لجهات الحجاز ومن رهبان مدين ووادي القرى الذين ذكرهم شعراء العرب ويؤيّد ذلك قول بعض الكتبة انّ واضعي الكتابة العربيّة كانوا من طسم وجديس وقال ابن النديم في الفهرست (ص ٤) والحاج خليفة في كشف الظنون (٣ : ١٤٥) « كانوا من ملوك مَدْين » وذكر رأي من ادّعى انهم وضعوا الخطّ العربيّ على اسمائهم وهي ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ». فذكرهما لمَدْين وذكر البلاذري لوادي القرى يؤيّد قولنا (راجع ما ورد في القسم الاوّل عن النصرانيّة فيها)

وقد وجد العلماء من هذا الخطّ النسخيّ امثلة عديدة يرتقي عهدها الى عهد الخطّ الآخر. ومن ثمّ لم يعد يجوز القول كما ورد في كتاب القلقشندي عن الخطّ (المشرق ٤ : ٢٨٠) بانّ « الخطّ الكوفي هو العربي. وانّ الخطّ النسخي وضعهُ ابن مقلة في القرن الثالث للهجرة » وعلى كلّ حال لا بُدّ من الاعتراف بفضل النصارى لتشييع الخطّ في جهات العرب

وما عدا هذه الشواهد التي تنسب الكتابة الى قوم من النصارى قد ورد في تراجم الشعراء وقصائدهم ما يشير الى شيوع الكتابة بين النصارى قبل الهجرة. فمن ذلك ما روى صاحب الاغاني (٢١ : ١٩٥) وغيرهُ من قدماء الكتبة عن طرفة والمتلمّس وعن الرسالتين اللتين كتبهما عمرو بن هند لعامله المكعبر في البحرين موهماً بانّهُ يوصي لهما بخير وهو يضمر لهما الشرّ. فتلقّى المتلمّس صحيفتهُ واعطاها غلاماً عباديًّا من غلمان الحيرة فقرأها لهُ: « باسمك اللهمّ من عمرو بن هند الى المكعبر.

اما بعد اذا جاءك كتابي هذا من المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنهُ حيًّا (١» فلمَّا عرف مضمونها فرَّ هاربًا. امَّا طرفة فلم يشاء ان يقف على محتويات صحيفته فمات قتلًا وضُرب المثل بصفيحة المتلمس للمتهوّر في التهلكة . وفي هـذا دليل على انَّ البادين وهم قوم من النصارى في جهـات الحيرة كانوا يعرفون الكتابة ويعلّمونها غلمانهم . وفي الاغاني (٥ : ١٩١) ان المرقّش الاكبر واخـاهُ سرحة « دفعهما الى نصرانيّ من اهل الحيرة فعلّمهما الخطّ »

ولنا دليل اخر في المعلقات التي زعموا انّهـا كُتبت على الحرير وعُلّقت على استار الكعبة واخصّ المعلّقات لشعراء من قبائـل نصرانيّة كتغلب وبكر وكندة ففي كتابتها برهان على شيوع فنّ الخطّ بين النصارى

ومن الادلّة على ذلك مـا جاء في شعراء النصرانيّة من الاشارة الى الكتابة كقول حاتم الطائيّ (الاغاني ٧ : ١٣٢) :

أتعرف آثار الديار توهّمًا كخطّك في رقّ كتابًا مُنمنمًا

وقال المرار بن منقذ يصف اخربة دار :

وترى منها رسومًا قد عفت مثل خطّ اللام في وحي الزُّبُرْ

ومثلهما لبيد حيث قال :

وجلا السيول عن الطلول كأنّها زُبُرٌ تجدّ متونها اقلامُها

وسبقهم امرؤ القيس فشبّه طلل الدار بوحي الزبور في عسيب يماني :

لمن طَلَلٌ ابصرتُهُ فشجاني كخطّ زبورٍ في عسيبٍ يماني

وقال ايضًا مخضرمًا زبور الرهبان :

قفا نبكي من ذكرى حبيب وعرفانِ ورسمٍ عفت آياتُهُ منذ أزمانِ
انت حججٌ بعدي عليها فأصبحت كخطّ زبورٍ في عساحف رهبانِ

وقد افتخر اميّة ابن ابي الصلت بقومه اياد لمعرفتهم بالكتابة . فقال :

قومي اياد أعمّ أمم اد لو أقاموا فتنزل النِّعَمُ
قومٌ لهم ساحةُ العراق اذا ساروا جميعًا والقطّ والقلمُ

القطّ هو الكتاب . وقد بيّنا سابقًا انّ بني اياد من اوّل القبـائل المتنصرة .

١) راجع في المشرق (٥ : ١٠١٦—١٠٦٣) تفاصيل هذه القصّة

ومنهم كان لقيط الايادي (راجع القسم الاوّل ص ٧٥) الذي ارسل لقومه صحيفة ينذرهم فيها بما يتهدّدهم من الاخطار من جانب كسرى (١ اوّلها :

سلامٌ في الصحيفة من لقيطٍ الى من بالجزيرة من ايادِ

هذا ومما ينفي كلّ شكٍ في ما نقولهُ ان الكتابتين العربيّتين اللتين وُجدتا حتى اليوم من عهد الجاهليّة هما لقوم من النصارى . فاقدمُهما الكتابة التي رسمنا صورتها في القسم الاوّل الباب التاسع (ص ١٠٣ ١٠٤ وهي الكتابة المكتشفة في زُبَد في جوار الفرات يرقى عهدها الى السنة ٥١٢ للمسيح اي قبل الهجرة بمئة وعشر سنين وهي في ثلث لغات اي اليونانيّة والسريانيّة والعربيّة تُصرّح بان المشهد الذي أُقيم هناك انّما شُيّد تذكارًا للقديس سرجيوس الشهيد وفي اوّلها الاسم الكريم او دعاء لهُ تعالى (٢

والاثر الثاني وُجد في حرّان من اعمال بلاد حوران مكتوباً باليونانيّة والعربيّة تاريخهُ ٥٤ قبل الهجرة اي السنة ٤٦٣ لبُصرى و٥٦٨ للمسيح ورد فيهِ انّ هناك «مرطول» (Martyrium) اي مشهد لتذكار القديس يوحنّا المعمدان هذا اوّلهُ بالعربيّة

انا شرحبيل بر (بن) ظلمو (ظالم) بنيتُ ذا المرطول سنة ٤٦٣ . . .

وقد رسمنا مع هذه الكتابة كتابتين اخريين عربيّتين الواحدة بالحرف النبطي وجدها في غارة في الصفا الرحّالة دوسو وهي مكتوبة على ضريح احد ملوك الحيرة يُدعى امرؤ القيس بن عمرو تاريخ وفاته ٧ كانون الاوّل من السنة ٢٢٣ لبصرى الموافق لسبعة كانون الاوّل من السنة ٣٢٨ للمسيح . والاخرى عن صفيحة قرآن كُتبت على الرقّ من القرن الثالث للهجرة وهي خاصّة مكتبتنا الشرقيّة

فكلّ هذه الحجج والبيّنات دعت بالعلماء المستشرقين الى ان ينسبوا الكتابة العربيّة او على الاقلّ انتشارها بين العرب الى النصارى واوّلهم امامهم دي ساسي (B^on S. de Sacy) الذي كتب في هذا الصدد مقالة واسعة اثبت فيها استعارة العرب فنّ الكتابة من نصارى العراق وما بين النهرين قال في المجلّة الاسيويّة (J. A., I^re Série, X. 210-211) مشيرًا اليها :

J'établissais par des preuves de toute espèce que l'écriture . . .

١) راجع تاريخ ابن الاثير (١ : ١٥٧ طبعة مصر)

٢) اطلب رحلة المسيو دوسو (R. Dussaud) الى باديه الشام (ص ٣١٦، ٣٢٤) وكتاب ليدزبرسكي (Lidzbarski) في الكتابات الآرامية (ص ٤٨٤)

fut apportée dans le Hedjaz de la Mésopotamie, où les Syrieus l'avaient propagée parmi les tribus arabes qui avaient, du moins en partie, reçu la religion chrétienne, ce culte auquel la mauvaise foi a si souvent reproché de favoriser l'ignorance, et qui, comme l'histoire en fait foi, a toujours amené à sa suite l'art d'écrire et le goût pour l'étude.

وقال الاثري الشهير فيليب برجه في كتابه عن اصول الكتابة (Ph. Berger: *Histoire de l'Ecriture dans l'Antiquité*, 2de éd., 287) « ان الكتابة العربية وجدت قبل محمّد كانت نصرانيّة قبل ان تتحوّل الى اسلاميّة »

L'écriture arabe existait avant Mahomet, elle a été chrétienne avant d'être musulmane.

ومثلهما المستشرق العلّامة ولهوزن (J. Wellhausen : *Reste arab. Heidentums*, p. 232) اكّد بان الكتابة العربية شاعت اوّلًا بين النصارى ولاسيما العباديين في الحيرة والانبار فقال :

Die Christen haben das Arabische wol zuerst als Sprichtsprache gebraucht. Namentlich die Ibaedier von Hira und Anbar scheinen sich in dieser Beziehung Verdienste erworben zu haben.

ويوافق هؤلاء الكتبة الدكتور الالماني روتستين (G. Rothstein : *Die Dynastie d. Lahmiden in al Hira*, p. 26) والاستاذ المجري الشهير غولدسير (J. Goldziher : *Mohammedanische Studien*, I, 110)

فهذه الشواهد كافية لتثبت حقيقة قولنا بانّ الفضل الكبير في تعليم الكتابة العربيّة للمسلمين يرجع لنصارى العرب وان لم ننكر انّ لليهود ايضاً حصّة في ذلك لا سيما في المدينة كما ذكر البلاذري . وكذلك ذكروا انّ بعض العرب كتبوا في الجاهليّة بالعبرانيّة الّا انّ عبرانيّة ذلك العهد هي الآراميّة او السريانيّة كقول صاحب الاغاني (٣ : ١٤) عن ورقة بن نوفل « انّهُ كان يكتب بالعبرانيّة من الانجيل ما شاء » والله اعلم (لهُ بقيّة)